حقوق الأنسان فى الاسلام

للدكتور على عبد الواحد وافى

ترجع أهم حقوق الانسان العامة إلى حقين رئيسيين المساواة والحرية وقد ادعت الأمم الديمقراطية الحديثة أن العالم الانسانى مدين لها بتقدير هذين الحقين وما تفرع عنهما من حقوق . وتنازعت فيما بينها فضل السبق إلى ذلك فذهب الانجليز إلى أنهم أعرق شعوب العالم فى هذا المضمار وزعم الفرنسيون أن هذه الاتجاهات جميعا كانت وليدة ثورتهم وأنكرت أمم أخرى على الانجليز والفرنسيين هذا الفضل وادعته لنفسها .

والحق أن الاسلام هو أول من قرر المبادىء الخاصة بحقوق الانسان فى أكمل صورة واوسع نطاق ، وان الأمم الاسلامية فى عهد الرسول عليه السلام والخلفاء الراشدين من بعده كانت أسبق الأمم فى السير عليها وإن الديموقراطيات الحديثة جميعا لا تزال متخلفة فى هذا السبيل تخلفا كبيرا عن النظام الإسلامى .

وبحسبنا للدلالة على ذلك أن نعرض فيما يلى موقف الاسلام من الحقين الرئيسيين من حقوق الانسان وهما المساواة والحرية :

وترجع أهم مظاهر المساواة إلى ثلاثة انواع : أحداها المساواة فى القيمة الأنسانية المشتركة ، وثانيها المساواة أمام القانون وفى الحقوق العامة السياسية وغيرها ، وثالثها المساواة فى شئون الاقتصاد .

١ — المساواة فى القيمة الانسانية المشتركة

يقرر الاسلام ان الناس سواسية فى هذه الناحية كاسنان المشط ، وانه لا تفاضل بينهم فى هذا الصدد إلا على اساس كفاياتهم واعمالهم وما يقدمه كل منهم لربه ونفسه ووطنه والمجتمع الانسانى . فقضى الإسلام بذلك على نظام الطوائف ، واساليب التفرقة بين الطبقات ، وقواعد المفاضلة بين الناس تبعا لاختلاف شعوبهم اوتفاوتهم فى الاحساب والأنساب .

وفى هذا يقول الله تعالى : « يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن اكرمكم عند الله اتقاكم ، إن الله عليم خبـــيرا » . ويقول عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع التى جعلها دستورا للمسلمين من بعده وجمع فيها اسس الدين الاسلامى : « ايها الناس : إن ربكم واحد ، وإن اباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب . اكرمكم عند الله اتقاكم ، وليس لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على ابيض ، ولا لأبيض على احمر ، فضل إلا بالتقوى الا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد ، الا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » .

وتقاول مرة أبو ذر الغفارى وعبد زنجى فى حضرة النبى عليه السلام فاحتد أبو ذر على العبد وقال له : « يا ابن السوداء » ، فغضب النبى عليه السلام ، وقال : طف الصاع طف الصاع ، أى قد تجاوز الأمر حده « ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح » . فوضع أبو ذر خده على الأرض ، وقال للأسود : « قم فطأ على خدى » .

٢ — المساواة أمام القانون وفى الحقوق العامة

لا يختلف موقف الاسلام حيال هذا النوع من المساواة عن موقفه حيال النوع السابق . فقد قرر الاسلام أن يعامل الناس جميعا على قدم المساواة امام القانون وفى الحقوق العامة بدون تفرقة بين صعلوك وأمير ، ولا بين شريف

ووضيع . وفى هذا يقول عمر رضى الله تعالى عنه ، الذى يرجع إليه قسط كبير من الفضل فى تنظيم شئون القضاء فى الاسلام وإقامتها على دعائم متينة من كتاب الله وسنة رسوله وعمل الصحابة ، يقول فى أول خطبة خطبها بعد توليه الخلافة : « أيها الناس إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندى من الضعيف حتى آخذ الحق له ، ولا أضعف عندى من القوى حتى آخذ الحق منه » . ويقول فى رسالته فى القضاء التى كتبها إلى أبى موسى الأشعرى . وهى التى جمع فيها معظم أحكام الاسلام فى القضاء . « من عبد الله عمر ابن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس : سلام عليك أما بعد : فان القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك ، وأنفذ إذا تبين لك ، فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك (أى سو بين المتقاضين فى جميع هذه الأمور) حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك » . ويقول فى وصيته للخليفة من بعده : « اجعل الناس عندك سواء ، لا تبال على من وجب الحق . ثم لا تأخذك فى الله لومة لائم ، وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله » .

ولم يكن الأمر مقصورا على وضع قواعد وتقرير مبادىء ، بل إن التاريخ ليثبتنا أن هذه القواعد والمبادىء كانت منفذة بحذافيرها أدق تنفيذ فى عهد الرسول عليه السلام والخلفاء الراشدين من بعده ، أى فى أثناء المرحلة الذهبية التى تمثل مبادىء الاسلام أصدق تمثيل . فقد جاء مرة أسامه بن زيد وكان من أحب الناس الى رسول الله صلى الله عليه — الى النبى عليه السلام يشفع فى فاطمة بنت الأسود المخزومية ، وكان قد وجب عليها حد السرقة لسرقتها قطيفة وحليا ، فأنكر الرسول عليه السلام شفاعة أسامة على حبه له ، واتهوة قائلا : « أتشفع فى حد من حدود الله » ؟ ثم قام فخطب فى الناس فقال : « انما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا اذا سرق الشريف تركوه واذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

وشكا يهودى عليا الى عمر بن الخطاب فى خلافة عمر ، فلما مثلا بين يديه خاطب عمر اليهودى باسمه بينما خاطب عليا بكنيته فقال له يا ابا الحسن حسب عادته فى خطابه معه فظهرت آثار الغضب على وجه على . فقال له عمر : أكرهت أن يكون خصمك يهودياً وان تمثل معه أمام القضاء على قدم المساواة : فقال على : لا ولكننى غضبت لأنك لم تسو بينى وبينه ، بل فضلتنى عليه إذ خاطبته باسمه بينما خاطبتنى بكنيتى (والخطاب بالكنية كان أسلوبا من أساليب التعظيم للمخاطب) . وحدث مرة أن ولدا لعمرو ابن العاص ضرب رجلا من دهماء المصريين فى عهد ولايته على مصر : فأقسم المجنى عليه ليشكونه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . فقال له : اذهب فلن ينالنى ضرر من شكواك ، فانا ابن الأكرمين . فبينما كان الخليفة عمر ابن الخطاب مع خاصته وعمرو بن العاص وابنه معهم فى موسم الحج قدم هذا الرجل عليهم وقال مخاطبا عمر : يا أمير المؤمنين ، إن هذا (واشار إلى ابن عمرو) ضربنى ظلما ، ولما توعدته بأن أشكوه إليك قال : اذهب فانا ابن الأكرمين . فنظر عمر إلى عمرو وقال قولته المشهورة . « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » . ثم توجه إلى الشاكى وناوله درته . وقال له : « اضرب بها ابن الأكرمين كما ضربك » .

وحدث مرة أن عمر بن الخطاب فى أيام خلافته رأى رجلا وامرأة على فاحشة فجمع الناس وقام فيهم خطيباً وقال : « ما قولكم أيها الناس لو رأى أمير المؤمنين رجلا وامرأة على فاحشة ؟ » فقام على بن أبى طالب وأجابه بقوله : « يأتى أمير المؤمنين بأربعة شهداء أو يجلد حد القذف ، شأنه فى ذلك شأن سائر المسلمين » ، ثم تلا قوله تعالى : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون » فسكت عمر ولم يعين شخصى المجرمين .

ويسوى الإسلام فى تطبيق هذا المبدأ بين المسلمين وغير المسلمين ، فيقرر أن الذميين فى بلد إسلامى أو فى بلد خاضع للمسلمين ، لهم ما للمسلمين من حقوق

عامة وعليهم ما على المسلمين ، وتطبق عليهم القوانين القضائية التى تطبق على المسلمين إلا ما تعلق منها بشئون الدين فنحترم فيه عقائدهم وشعائرهم .

فأين من هذه المبادىء السمحة ما تسير عليه أكثر أمم الغرب فى العصر الحاضر ادعاء للديموقراطية وهى الولايات المتحدة الأمريكية . إذ تفرق قوانينها بين البيض والسود من أبناء شعبها ، وتحرص على هذه التفرقة فى مختلف مظاهر الحياة وشتى أنواع المعاملات . حتى فى الشئون القضائية نفسها وفى تقدير العقوبات وطريقة تطبيقها ؛ وحتى إنها لتجيز للجماهير أن تربط الأسود إلى شجرة أو سارية وتوثق كتافة وتحرقه حرقا ، أو تقطعه إربا إربا ، بدون لمحاكمة ولا مقاضاة ، أذا اتصل بامرأة بيضاء ، أو لم يلتزم الحدود التى ألزمه القانون بحكم لونه إلا يتعداها .

تعبيرات صوفية مضيئة

(١) قال مالك بن دينار : لو كانت الصحف من عندنا لاقللنا الكلام

(٢) ويقول يونس بن عبيد : لو امرنا بالجزع لصبرنا

(٣) قال عمر بن عبد العزيز : يازياد . إنى اخاف الله مما دخلت فيه! قال زياد : لست أخاف عليك أن تخاف ، وانما أخاف عليك الا تخاف .

(٤) ويقول الفضيل : أنا من أن امنع الدعاء اخوف من أن الاجابة .

(٥) ويقول ابن المبارك . افضل الزهد اخفاه

(٦) ويقول سهل بن عبد الله التسترى : ماانظر عبد إلى نفسه فافلح ولا ادعى لنفسه حالا فتم له ، ولااضاف لنفسه علما إلا اهلكه .

(٧) قال السرى السقطى : القلوب ثلاثة . قلب مثل الجبل لايزيله شىء وقلب مثل النخلة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، وقلب كالريشة تميل مع الريح يمينا وشمالا .